مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية ISSN :2353 - 0499
المجلد1 ، العدد2، (جوان 2013) EISSN :2602 -5264

# الجسد الأنثوي والمقدس

**الأستاذة خديجة بلخير جامعة تيارت**

مقدمة:
لقد شكل موضوع العناية بالجسد أهمية كبرى منذ الإغريق القدماء ، وقد تجلى هذا الاهتمام في مستويات متعددة على المجال المعرفي ، وما زال إلى حد الآن يشكل بؤرة الاهتمام والعناية لدى الباحثين بحيث نجد أن تاريخية الجسد والجسد الأنثوي خاصة تكشف حجم المحرمات في الثقافة العربية الإسلامية ، لكونها تمثل مركزا للرغبات والممنوعات في إطار سياسة الشهوة ، ولهذا يمكننا أن نطرح هذا السؤال :

***كيف يتمّ تمثل الجسد الأنثوي في الحقل القداسي ؟***

" إن الإنسان يجهل على الأقل كل جسده ولم يرى Francis ponge يقول فرنسيس يونج
أبدا أمعاءه وأنه نادرا ما يلتقي بدمه إذا رآه يتحيّر وهو غير مصرح له من طرف الطبيعة لمعرفة إلا أطرافه أو حدود جسده ....عارفا من قبل أنه لا يمكنه أن يعتقد ، لا شيء مجحف ولا أكثر امتداد كملكة الإنسان للعيش في منتهى الغرابة ، وفي الجهل الخالص لما يلمسه عن قرب أو الأكثر خطرا" (سمية بيدوع ، 2009 ،ص 11).

يتعجب فرنسيس لجهل الإنسان بجسده ، وذلك لكونه يخلط بين الجسم والجسد ، بحيث يعتبر الأول الحقيقة الفيزيائية والعقلية ، والتي تنصب تحت وعاء الجسد ، أما هذا الأخير فهو يمثل الكائن الحيّ بما هو منبع الفكر والوعي والحركة.

***<u>رؤية الجسد فلسفيا :</u>***

إذا تكلمنا عن القيم والأخلاق القديمة وتأثيرها العميق في توجيه السلوك الفردي ، نحو الغايات القصوى للكمال الإنساني ، فلا نجد أكثر تعمقا من الفلسفة اليونانية التي أرست دعائمها نحو النفس البشرية وتوجيهها نحو الفضيلة ، من خلال السيطرة على الأهواء والشهوات ، فالشعار السقراطي " اعرف نفسك بنفسك " لا ينصب فقط في حقل المعرفة فحسب ، بل وجود الذات ومعرفة الذات.
وها هو ذا أفلاطون الذي يولي اهتمامه الكبير بالنفس مثلما فعله أستاذه سقراط مستبعدين في ذلك الجسد والذي لا يعدوا سوى عائقا أمام سمو النفس وخلاصها من العالم المادي .
فالأفلاطونية ترى أن الجسد منجذب إلى الملذات ، بينما النفس تصبوا إلى العلم والحكمة ويصور لنا أفلاطون هذا المشهد في أحد محاوراته بالعربة المجنحة ذات

الحصانين ، ويدعونا إلى التخلص من الجسد باعتباره قبر النفس ، لهذا يجب أن نبحث عن الحياة الحقيقة عن طريق الموت .
ونجد للجسد حضورا في الفلسفة الفينومينولوجية من حيث أنه يوفر للإنسان إحساسا بالحركة وأصبح موضوعا لعلم النفس والسوسيولوجيا وموضوعا لعلم التشريح .
والجسد/ الذات الخاص ، هو الجسد الحيّ الذي يحدد ذواتنا ، فإذا حاولنا تحليل ما الجسد حسب التعبير المرلوبونتي كان عبارة عن موضوع وجهاز مركب ، وكأداة للتعبير والكلام والتي يتحقق عن طريقها وجودنا في العالم .
فالجسد في صميمه إدراك وتعبير وحضور أمام العالم وأمام الآخرين ، يلخص كل وظائفه ، يقول موريس مرلوبونتي " إن الجسد كائن في العالم كالقلب في الجهاز العضوي" ويقول أيضا " لسنا فكرا وجسدا ، لسنا وعيا قبالة العالم ، بل نحن فكر متجسد وكيان في العالم "( سمية بيدوع ، 2009 ،ص 19).
فالجسد لا يعدّ موضوع معرفة وإنما هو قوام الوجود ، بمعنى الوعي الدائم للذات ، والعالم يمرّ عبر الجسد.
أما في المفهوم الديكارتي فذو مكانة إيجابية ما لم يكن عليه من قبل ، بحيث أصبح موضوعا من الموضوعات الأخرى ، وهو بذلك فتح المجال في القرن العشرين للنظرة العلمية

Le corpsلهذا المفهوم ، بحيث تمكن علم التشريح من معرفة الجسد-الجثة

وبدأ استغلاله في الغرب منذ القرن السادس عشر في المجال الطبي وغيره.cadavre

***<u>الجسد الأنثوي والمقدس:</u>***

إن قداسة النساء ظلت من المواضيع المنسية والمهمشة عبر التاريخ ، وذلك لما كانت تحتله من مكانة أدنى من مرتبة الرجل ، فالمرأة مهما استطاعت أن تثبت ذاتها تظل ذلك الكائن الحي الضعيف الذي لا يستطيع أن يقدم شيئا جوهريا للقداسة.
ولو حللنا الدور الذي كانت تلعبه المرأة عبر العصور ، نجد أن وظيفتها قد اقتصرت على الإنجاب وتربية الأطفال وفقط ....وهاهو ذا أفلاطون يدعو إلى شيوعية النساء ، إلى فرض أقصى قيود على العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة بحيث تقتصر على تحقيق الأغراض الطبيعية في بقاء السلالة ونقائها ، إنها كانت فيما" ترى تيلور- دعوة إلى الزهد في العلاقات الجنسية بين الجنسين وعدم الإفراط فيها والاكتفاء منها بما هو ضروري "( مصطفى النشار، ص56).
" كان وضع المرأة في المجتمع الأثيني يشبه كثيرا وضع العبيد ، فلفظ الزوجة كان يعني

**وجذور هذا اللفظ تعني التابعة .."وdamar" دمار**

**عندما** كانت العروس تصل إلى بيت العريس كان يفرغ فوق رأسها سلة مملوءة بالبندق لجلب الحظ وهو تقليد كان يمتد إلى العبيد اشتراهم الرجل حديثا ، ولم تكن

المرأة كالعبد ، تتمتع بأية حماية في ظل القانون ما لم يملكها الرجل ، إذ الواقع أنها لم تكن شخصا في نظر القانون ..."(إمام عبد الفتاح إمام، 1992،ص97).

إن هذا النص يشير إلى أن مرتبة الأنثى أدنى من مرتبة الرجل وأقل من حيث القدرة العقلية إذ يطغى عليها الجانب الجسدي أو جانب الشهوات والانفعالات ، **هي الجسد**...في حين أن الرجل هو الروح والمبدأ العقلي.

حتى وإن كانت هناك فضائل مشتركة بين الرجال والنساء في المجتمع الأثيني ، إلا أن المرأة تظل دائما تمثل ربة البيوت والتي يجب أن تتسم بالحكمة والفضيلة والاعتدال في كل شيء ، و هذا الأمر يمكنها من أن تقوم بتقديم الصلوات للآلهة .

" لابد للمرء أن يتدبر هذه النقطة أيضا ، وهي أن المرأة التي تجد Phintyتقول فينتس

علاجا مطهرا لتلك الغلطة ، بحيث تعد عفيفة ومحبوبة من الآلهة بعد أن دنست المعابد والمذابح ، ففي حالة هذه الخطيئة –ربما أكثر من غيرها – فإن الروح القدس لا يكون رحيما قط ، بل في غاية القسوة " (إمام عبد الفتاح أمام ، 1996،ص102).

ولهذا نرى بركتيوني (فيلسوفه يونانية فيثاغورية) تحذر المرأة من الإفراط بجمالها الفيزيقي أو جمال الجسد ، لأن هذا يسهم في الفساد الأخلاقي عندها ، كما يعتبر- في رأيها – أول خطوة نحو الخطيئة والرذيلة ، لهذا كان الاعتدال أو ضبط النفس هو الغاية التي يجب أن تتسم بها المرأة.

وقد كان لهذه الفكرة التي تقول أن المرأة أصل الخطيئة أثر بالغ في تشكيل النظرية المسيحية في القرون المسيحية الأولى ، ثم في العصور الوسطى بعد ذلك ، ولقد بدأت هذه الفكرة من القديس بولس الذي كان يردد الفكرة اليهودية التي تقول إن المرأة هي أصل الغواية ، وأنها هي التي انحرفت بآدم وأخرجته من الجنة ، ولم يكن ذلك الخطأ مرتبط بحواء فقط ، وإنما امتد إلى بناتها أيضا واستمر معهن ، فأصبحت المرأة دائما مصدر غواية الرجل، ومصدر لكل إثم ، وخلاصها لا يكون إلا أن تعلو على طبيعتها الأنثوية وأن ترفض متعة الجسد .

ولذلك يدعو القديس بولس الرجال الابتعاد عن النساء قدر المستطاع ، ونجده يصرح في قوله عن الزواج

فيقول: " إن بين الزوجة والعذراء فرقا ، فغير المتزوجة تهتم في ما للرب لتكون مقدسة ، جسدا روحا أما المتزوجة فهي تهتم في ما للعالم وهدفها لكي ترضي رجلها " ( إمام عبد الفتاح إمام ، 1996، ص 55).

وإن كان هو لا يدعو المسحيين عن الإضراب عن الزواج ولكنه يفضل أن يبقى كلا من الجنسين بعيدين عن المتعة والملذات ، كما انه لم يجعل مرتبة المرأة أدنى من مرتبة الرجل ، بل دعا إلى المساواة بينها

وقد ظل هذا الأمر إلى غاية ظهور الآراء الفلسفية المسيحية ، والتي كان لها وجهة نظر أخرى مخالفة نوعا ما عنه ، فنجد مثلا كلمنت يضع مرتبة المرأة أدنى من

مرتبة الرجل بسبب العقل ، إذ يقول : " العقل أمانة عند الرجال لا يلحقه خطأ ، ولا يعتريه عيب ولا قصور...أما عند المرأة فإننا نجدها بطبيعتها شيئا مخزيا ومخجلا حقا " ( إمام عبد الفتاح إمام ، 1996، ص 68).

واستمرت هذه النظرة السلبية للمرأة عند الاهوتين ورجال الدين الذين لا يعرفون عنها سوى **الجنس** ولهذا وجب على المرأة المسيحية المؤمنة أن لا تتزين بأي وجه ، وأن تعمل على تغطية هذا الجسد الذي هو منبع الرذيلة .

ويبدو هذا الرأي أكثر وضوحا بقول الأب الفيلسوف ترتوليان : " إن عليها – أي المرأة- أن تعمل على إطفاء هذه المفاتن ، وإهمال الجمال الطبيعي ، بل العمل على محو آياته ، ذلك لأن جمال المرأة الطبيعي بالغ الخطورة ، لكل من يراها أو يتصادف أن يسوقه حظه العاثر للوقوع في طريقها " ( إمام عبد الفتاح ، 1996، ص 78).

ولهذا كان على المرأة أن لا تستغرق في أظهار جمالها ، وزينة جمالها تكمن بالضبط في جسدها، ولهذا نجد أن الكنيسة في عهد ترتوليان كانت تختار العذارى لأداء الخدمة الدينية فيها ، على أنها قد تزوجت المسيح ، وأماتت كل شهواتها .

واستمرت هذه الديانة في محاربة الشهوات الحسية والإشباع الجنسي إلى الأنشطة الروحية وتحقيق المثل العليا الدينية بما فيها من زهد وإهمال للجانب المادي ، بحيث إذا نظرنا إلى المرأة على أنها روح فهي صورة الله ، أما إذا نظرنا إليها من حيث وظيفتها أي أنها –**جسد**- فهي على العكس من ذلك .

وهكذا يظل الجسد الأنثوي في التصور السائد ، هو دائما منبع الفتنة ورمز للخطيئة ، ومهما سمت روحه سيظل منظورا إليه بتلك النظرة السلبية ، إلى أن جاء الإسلام الذي أعطى دورا فعالا للمرأة ، ومكانة مرموقة في المجتمع .

فنجد مثلا في التصوف الإسلامي الذي فتح مجالا للمرأة ومنحها فرصة كي تثبت ذاتها وتتفوق على الرجل ، من خلال ورعها و زهدها . والتصوف كما هو معروف تجربة ذوقية تختلف من صوفي إلى أخر ولهذا أصعب ما واجهه الباحثون في هذا المجال ، هو ضبط هذا المفهوم ، فمنهم من نسبهم أي الصوفية إلى الصفة والصوف ، ومنهم من سماهم جوعية ، لأنهم إنما ينالون من الطعام قدر ما يقيم الصلب للضرورة كما قال **النبي صلى الله عليه وسلم " بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه".**

وسئل الجنيد عن التصوف فقال : تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد الصفات البشرية ، ومجانبة الدواعي النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بالعلوم الحقيقية واستعمال ما هو أولى على الأبدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء لله على الحقيقة وإتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في الشريعة " (الكلاباذي ، 2001، ص16).

وقيل الصوفي من صفا قلبه لله .

ونجد إمرة من سواحل الشام تصفهم بشكل دقيق عندما سألها ذو النون ، فأنشأت تقول :

قَومٌ هُمُومُهُم بالله قَدْ عَلِقَتْ فَمَا لَهُمْ هِمَمٌ تَسْمُو إِلَى أَحَدِ.
فَمَطْلَبُ القَوْمِ مَولاَهُمْ وَسَيِّدُهُمْ يَا حُسْنَ مَطْلَبِهِمْ للوَاحِدِ الصَمَدِ.
مَا إِنْ تَنَازَعَهُمْ دُنْيَا وَلَا شَرَفٌ مِنَ المَطَاعِمِ وَاللَّذَاتِ وَالْوَلَدِ.
وَلاَ لِلْبسِ ثِيَابٍ فَائِقٍ أَنَقِ وَلَا لِرَوْحِ سُرُورٍ حَلَّ فِي بَلَدِ.
إِلاَ مُسَارَعَةً فِي إِثْرِ مَنْزِلَةٍ قَدْ قَارَبَ الخَطْوَ فِيهَا بَاعِدُ الأَبَدِ.
فَهُمْ رَهَائِنُ غُدْرَانٍ وَأَوْدِيَةٍ وَفي الشَّوَامِخِ تَلْقَاهُمْ مَعَ العَدَدِ.

فقد تميز الصوفية عن غيرهم من الطوائف بمجاهدة النفس وتزكيتها والتخلص من كل ما هو مادي وذلك من أجل أن تسمو الروح وتتصل بخالقها .

ونجد المرأة في الخطاب الصوفي على غرار الرجل تسعى هي الأخرى للمطالبة بمكانة لها في حقل المقدس ، خصوصا عندما نجد في القرءان الكريم مجال المساواة بينهما فيما يتعلق بالجانب الإيماني

كما ورد في سورة الأحزاب ، حيث يقول الله عز وجل :" إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما " ( الأحزاب:35).

ونجد الشيخ الأكبر ابن عربي قد بيّن قيمة المرأة الروحية ومكانتها في المقامات الصوفية العليا إلى جانب الرجل بحيث لا نلمس هذا الفرق بين الجنسين ، لأن جوهر الرئيسي يكمن في حقيقة الإيمان والتوحيد .

وأكبر دليل على ذلك ما وصلت إليه رابعة العدوية في زهدها وورعها ، ويروى أن جماعة دخلت عليها لامتحانها فقالوا: قد نثرت جميع الفضائل على رؤوس الرجال ، ووضع تاج النبوة على رؤوس الرجال وعقد حزام الكرامة على خصوهم ، ولم تبعث أي إمرة قط ، فقالت رابعة : كل هذا صحيح ولكن ادعاء الإلوهية " وانأ ربكم الأعلى " لم يصدر عن إمرة قط ، ولم تكن هناك إمرة مخنثة قط ، وقد بدا هذا في الرجال".( رحال بوبريك ، 2010، ص18).

ويبقى على المرأة قد تدخل حقل القداسة مسار صعب وعسير نوعا ما، هو بمثابة سفر روحي ولا يكون إلا بالمرور عبر المقامات والأحوال والتي يعتبرها الصوفية ضرورية من أجل الوصول إلى مرتبة الولاية.

ومعنى كلمة الولي في اللغة هو القريب ، والمراد بأولياء الله الذين فازوا بالقرب من الله ، وقد ذكرهم الله في قوله:" ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون" ( سورة يونس 62).

فالوَلاية مرتبة في الدين عظيمة ، لا يبلغها إلا من قام بالدين ظاهرا وباطنا ، وهي أعظم قدرا وأعلى شأنا من النبوة ، يقول المستشرق نيكلسون : " ولكن ليس معنى هذا أن جميع الصوفية أولياء ، فإن الأولياء ليسوا في الحقيقة إلا طائفة قليلة من خواص أهل الله من الرجال والنساء الذين وصلوا إلى أعلى مراتب الأحوال الصوفية

، وهم من حيث صلتهم بالله بمثابة المرايا التي تنعكس عليها صورة الذات الإلهية ".

فالنبوة هي ظاهر الوَلاية ، والوَلاية هي باطنها ، بمعنى أن الوَلاية هي نوع من النبوة.

وحين تصل المرأة إلى هته المرتبة وتنافس الرجل في الورع والصلاح ، فإن أنوثتها تختفي ، ويصبح من الضروري نفي الجسد الأنثوي من أولويات الدخول إلى عالم الولاية .

وبالنسبة للجسد الأنثوي لدى المتصوفة ، لا يعتبر نقيضا للروح كما كان سابقا ، بل هو وسيلة للرقي إلى الأعلى والتقرب من الله ، ولا يكون ذلك إلا بإخضاعه للزهد والصيام ، ومجاهدة النفس التي هي في صراع دائم معه.

ولهذا نجد بعض المتصوفة يلجأ وون إلى الخلوة ، حيث يكون هدوء النفس وسكينتها ، وقد يصلون إلى حالة الغيبة ، أي أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها ، وأن يأخذ بحال العبودية وخضوع البشرية لا للذة والشهوة.

فالغيبة هي حالة تحدث للصوفي ، حيث يفقد شعوره بنفسه وبمن حوله ، ويحضر بالحق أو كما أنشد النوري ( الكلاباذي ،2001، ص 86) :

تَسْتَرْتُ عَنْ دَهْرِي بِسِتْرِ هُمُومِهِ مُحَيَّرَةً في قَدْرِ مَنْ جَلَّ عَنْ قَدْرِي
فَلاَ الدَهْرُ يَدْرِي أَنَنِّي عَنْهُ غائِبٌ وَلاَ أَنا أَدْرِي بالخطُوبِ إذاَ تَجْرِي
إذاَ كاَن كُلي قائِماً بِوَفائِه فَلَسْتُ أُبالِي ما حييتُ يَدَ الدَهْرِ.

كما نجد في حاله الغيبة هذه غياب للجسد من خلال ما يحدث له عند السماع أو الرقص الصوفي ، بحيث يعتبر وسيلة للوصول إلى العالم العلوي.

وبما أن المرأة هي أصل الغواية واللذة ، وجب عليها أن تجاهد نفسها بالرياضات والعبادات والتحرر من جسدها الذي يعتبر سجنا للروح ، " وأضحى الجسد يشكل بالنسبة للمرأة المتصوفة ، عائقا للتدرج في مراتب الصلاح ، وثابرت في القضاء على معالم الجمال التي قد تظهر عليه ، فالعديد من المتصوفات كن جميلات المظهر ولكن بدخولهن عالم التصوف تبدلت أحوال أجسادهن تماما لتختفي علامات الحسن" (رحال بوبريك ، 2010، ص57).

ويعتبر البكاء أشد تأثيرا على الجسد الأنثوي ، لما له من انعكاسات خطيرة كفقدان البصر مثلا ، هذا فضلا عن ما يحققه من اتزان روحي بين الذات الإنسانية والذات الإلهية ، ومسألة البكاء هذه تعود إلى الديانة المسيحية لما روي على لسان المسيح " طوبى للذين يبكون ، فإنهم يعزون".(رحال بوبريك، 2010، ص 60.).

وتصبح دموع المتصوف لغة الجسد ، أي هي التعبير الباطني للعارف ، الذي لا يستطيع التخلي عن هاته المكانة لأنها تمثل العلاقة الروحية في الاتصال بالخالق، ولم يكتفي إلى هذا الحد فقط بل سعى إلى درجة التشوق إلى الفناء.

وقد أشار القشيري في رسالته إلى أن الفناء هو سقوط الأوصاف المذمومة ، أما البقاء فهو قيام الأوصاف المحمودة ، فإذا فنى عن شهوته بقي بنيّته وإخلاصه في عبوديته .

فالصوفي هو في شوق دائم نحو الفناء ، للقاء ربه ، كيف لا وقد ذاق سكر المحبة .

قد سمع ذو النون ذات مرة أحدا متعلقا بأستار الكعبة يقول : " كتمت بلائي عن غيرك ، وبحت بسري إليك ، واشتغلت بك عمن سواك ، عجبت لمن عرفك كيف يسلو عنك ، ولمن ذاق حبك كيف يصير عليك؟ ثم أنشأ يقول :

ذوقتني طيب الوصال فزدتني شوقا إليك ، مخامر الحسرات .

وقد سمع الجنيد ذات مرة شابة أيضا تطوف حول الكعبة وهي تتغنى برفيقها العلوي وتقول: ( تور آندريه 2003، ص 235-237).

أبى الحب أن يخفى وكم قد كتمته فأصبح عندي قد أناخ وطّنبا
إذا اشتد شوقي هام قلبي بذكره فإن رمت قربا من حبيبي تقربا
ويبدو فأفنى ، ثم أحيي به له ويسعدني حتى ألذ وأطربا

ولا توجد حدود للمحبة " فمن ذاق عرف " كما يقول الصوفية ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

فالمحبة هي الميل الدائم للمحبوب .

ومن النساء اللواتي عرفن بالمحبة الإلهية ، رابعة العدوية والتي كانت تردد : أحبك لا طمع في جنتك ولا خوفا من نارك ، بل حبا لذاتك ، فالحب الإلهي بمعناه الحقيقي هو حب الذات الإلهية لذاتها ، ولكي يتحقق هذا لابد أن يتجرد المحب عن أهوائه ورغباته وأن يفنى عن نفسه في محبوبه .

ولهذا تعمل المرأة الصوفية جاهدة إلى التحرر من الجمال المحسوس والعمل على فنائه المادي، ساعية بذلك إلى رؤية الجمال المتعالي ، والذي لن يكون إلا بالموت الذي يعتبر معبرا إلى عالم مثالي ، عالم لقاء الروح بربها حيث الخلود الأبدي .

**قائمة المصادر والمراجع**

**-القرءان الكريم**

- أبو بكر محمد الكلاباذي ، التعرف لمذهب أهل التصوف ،دار صادر ، بيروت ، ط1، 2001.

- إمام عبد الفتاح إمام ، أرسطو والمرأة ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط1 ، 1992.

- إمام عبد الفتاح إمام ، نساء فلاسفة ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1996.

-إمام عبد الفتاح إمام ، الفيلسوف المسيحي والمرأة ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط1 ، 1996.

- تور آندريه ، التصوف الإسلامي ،تر: عدنان عباس علي ،منشورات الجمل ، ألمانيا ، ط1، 2003.

- مصطفى النشار ، مكانة المرأة في فلسفة أفلاطون ، دار قباء ، القاهرة.
- سمية بيدوع ، فلسفة الجسد ، دار التنوير، تونس ، 2009.
- رحال بوبريك ، بركة النساء ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، 2010.